بين النسق والمنهج: المنظومة الفكرية لمنى أبو الفضل(*)

د.سيف الدين عبد الفتاح(**)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة:286]

أودُّ أن أفتتح كلمتي في بداية هذه الجلسة بعدة **ملاحظات أساسية**، وبعد الكلام المهم الذي طوَّفت به أستاذتنا الدكتورة نادية مصطفى (خلال عرضها لورقتها البحثية) حول موضوعاتٍ عدة تتعلق بإسهامات أستاذتنا الدكتورة منى أبو الفضل، ربما تخرج عن إطار البحث، ولكن أظن أنه من المهم أن نؤكدها ونقف مليًّا عندها.

أولى هذه الملاحظات، أنني أعترف أن الكلام عن أستاذتي الدكتورة منى أبو الفضل لا يرقى إلى مستوى معانيها وعالم مغازيها، فقد مرَرْتُ بتجربة شعورية أثناء إعدادي لهذه الدراسة لم أمرّ بها من قبل، حتى عندما كتبت بحثًا عن أستاذي الدكتور حامد ربيع الذي تواصلت معه كثيرًا.

فعندما شرعت في الإعداد لهذه الورقة ورحت أعيد التعلم على أعمال أستاذتنا الدكتورة منى أبو الفضل، رأيت من واقع كلماتها وأعمالها كيف أننا قد فقدنا –للأسف– عالِمة جليلة بحق، استطاعت أن تؤصِّل معاني عظيمة في نفوس مَنْ تعلّق بها وتتلمذ على يديها.

أما الملاحظة الثانية، فإنها تتعلق بذلك الأمر الذي نحن بصدده، فقد أتيت إلى هنا أحمل معي ملفًا به أوراق كثيرة، وكذلك فعلت أستاذتنا الدكتورة نادية مصطفى، ونحن في ذلك مُتأَسُّون بأستاذتنا الدكتورة منى أبو الفضل؛ إذ دائمًا ما كانت تأتي ومعها ملف يحمل من العلم الكثير والغزير. ونحن وإن كنا نحمل من العلم الكليل العليل، إلا أننا نريد أن نؤكد تلك المعاني التي أصّلت لها أستاذتنا الدكتورة منى أبو الفضل.

وتتعلق الملاحظة الثالثة بوظيفة الجلسة الأولى من الندوة، فأظن أن ليس من وظيفة الجلسة الأولى أن نقوم بقراءة مفصّلة لبعض ما قامت به وأسهمت فيه، ولبعض ما أصّلت له

(*) نص مفرّغ.

(**) أستاذ النظرية السياسية والفكر السياسي، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، جامعة القاهرة.

وبنتْ الدكتورة منى؛ لأن من مقصود هذه الجلسة أن نعاود نَظْم بعض ما كتبتْ أستاذتنا من أفكارٍ في منظومة كلية كما هو مبين في عنوان هذه الورقة، التي اختار عنوانها بدقـةٍ الأسـتاذ مدحت ماهر، وهو "**بين النسق والمنهج: المنظومة الفكرية لأستاذتنا منى أبو الفضل**".

أما الملاحظة الرابعة والأخيـرة، فهي أنني حِرتُ حيرةً شديدة؛ فماذا أطلق عليها: أهي المفكر؟ أهي المثقف؟ أهي العالِم؟ أم المنظِّر؟ فلم أجد في ذلك ما يوفّيها حقها، فإنها "**فيلسوفة علم**"، و"**فيلسوفة حكمة**"، استطاعت أن تقدّم من كلماتها ومن قلبها ومـن وجدانها ما استطاعت أن تؤثر به فيمن حولها، وإن شاء الله ستؤثر في أجيالٍ مقبلة.

وفي هذا الإطار، أود أن أؤكد أمرًا مهمًا، هو أنني وإن كنت قد كتبت عن أستاذنا الدكتور حامد ربيع أنه قد أنتج نصًا حرًا وعلمني كيف أكتبه، فإن أستاذتي الدكتورة منى أبو الفضل قد علمتنا كيف يمكن أن نصوغ **نصًا حضاريًّا**؛ حيث لا يُعد كل نص نصًا حضاريًّا.

ومن هنا وجب عليَّ أن أتحدث عن **سمات هذه النـصوص الحـضارية التـي كتبتهـا د.منى أبو الفضل**، وعن بعض ما خطَّته وسطّرته في بعض هذه الورقات التي أمامنـا، فأخرجتْ من حضارة النص نصوصًا للحضارة، ثم جعلتْ من النصِ مـدخلاً للبنـاء الحضاري والعمراني، وكأنها كانت تكتب النص فتُشيِّد معمار حضارة، ثم جعلتْ أيضًا من هذا الإنتاج الذي يتعلق بالحضارة إنتاجًا وحضورًا معرفيًا وفكريًا.

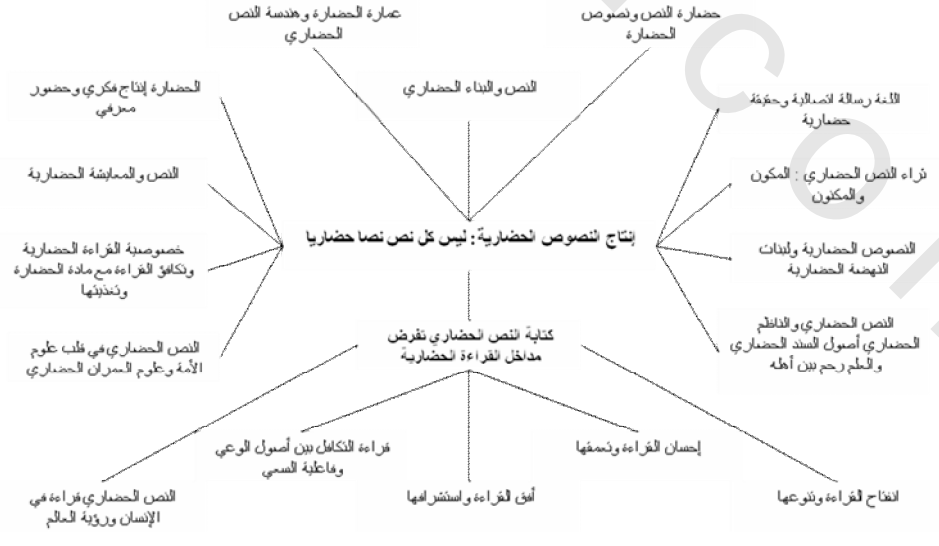

فهكذا علمتنا أن الحضارة ليست في السُكنى بالحضر كما قال "ابن خلدون"، ولكن الحضارة هي الحضور، فهي نقيض المغيب.

والنص الحضاري كما أكدته وكتبته د.منى أبو الفضل، هو معايشة حضارية، فكانت فيما كتبت، تذهب إلى التاريخ وتحاول أن تحفر في ذاكرته، فتجد من الدر المنثور، فتنظمه كيفما أرادت وحيث أرادت.

وتعد تلك النصوص الحضارية التي كتبتها في قلب علوم الأمة وعلوم العمران الحضاري، فقد كانت دائمًا تؤكد أن العلوم الإنسانية والاجتماعية والطبيعية والتطبيقية، إنما هي علوم الأمة، وعلوم العمران الحضاري.

وقد علمتنا أن كتابة النص الحضاري قراءةٌ في الإنسان ورؤيةٌ للعالم، وأن قراءة النص الحضاري تكافل بين أصولِ الوعي وفاعليةِ السعي، وأن للقراءة أفقًا لا يمكن أن ينسدّ، وأن لها طريقًا لا بد أن يُقطع. وحددت أصول القراءة باستشرافها، وعناصر القراءة بإحسانها وعمقها.

وتؤكد أن منظومة القراءة الحضارية تكون بانفتاحها على ضمير الإنسان، وعلى كل ما يتعلق بعمارة الإنسان والأكوان. وأن صياغة النص الحضاري هي عمارة وهندسة، فيجب أن نتوخى كل العناصر التي تتعلق بإقامة بنيانه وتأسيسه، وأن النص الحضاري لبنات في نهضة الأمةِ والحضارةِ، وأن اللغة ليست إلا رسالة اتصالية وحقيقة حضارية، وأن ثراء النص الحضاري لا يكون في مكوناته، ولكن يسكن في مكنوناته.

وعلمتنا أن النص الحضاري ناظمٌ حضاري، وأصول سندٍ حضاري، يؤكد أن العلم الحضاري رحمٌ بين أهله.

كلُ ذلك علمتنا إياه، وأنتجت تلك النصوص الحضارية لتعلمنا أن تلك النصوص ليست بصنعة الضعفاء، وليست بصنعة المتخاذلين، ولكنها صنعة الأقوياء وصنعة الأعزاء. فالنص الحضاري يُكتَب بحروفٍ من الكرامة والعزة.

وفي هذا الإطار، فإنني أؤكدُ عناصر ثلاثة غاية في الأهمية، أكدتْ عليها الدكتورة منى وهي تحاول أن تنظم برنامج عملها في هذه المهام، والذي صاغته من محبرة دمائها.

هذه الثلاثية هي: النص الحضاري، والنظم المعرفي، وجدلية النسق والمنهج والفكر، وهي الثلاثية التي بدت تجدل فيها الصبغة الحضارية التوحيدية Tawhidi Episteme لتؤكد فيها أن هذا النظر الحضاري هو نظرٌ لأفقِ الكونِ والإنسان، هو نظرٌ يقوم على أصل التدافع، لا أن يكون الصراع قيمة عُليا تؤثر في كل مكنونات حياتنا، وتعيش في كل علاقاتنا، كما هو الأمر في النموذج المتأرجح.

وقد وصلت هذه الصبغة؛ الصبغة الحضارية التوحيدية في إطار وصل منهاجي، لتنبت منها صيغٌ حضارية، تؤكد نماذج ومنظورات متنوعة: بين نماذج معرفية، وأنساقٍ قياسية كالنسق القياسي للشرعية، وأنساقٍ للفاعلية، ومنهجية للتعامل مع المصادر المرجعية، وأصول لفقه الواقع والدراسة العلمية والمنهاجية، ... جمعت كل ذلك في صيغةٍ متكاملة ناضجة أسمتها **"المنظور الاجتماعي الحضاري"**.

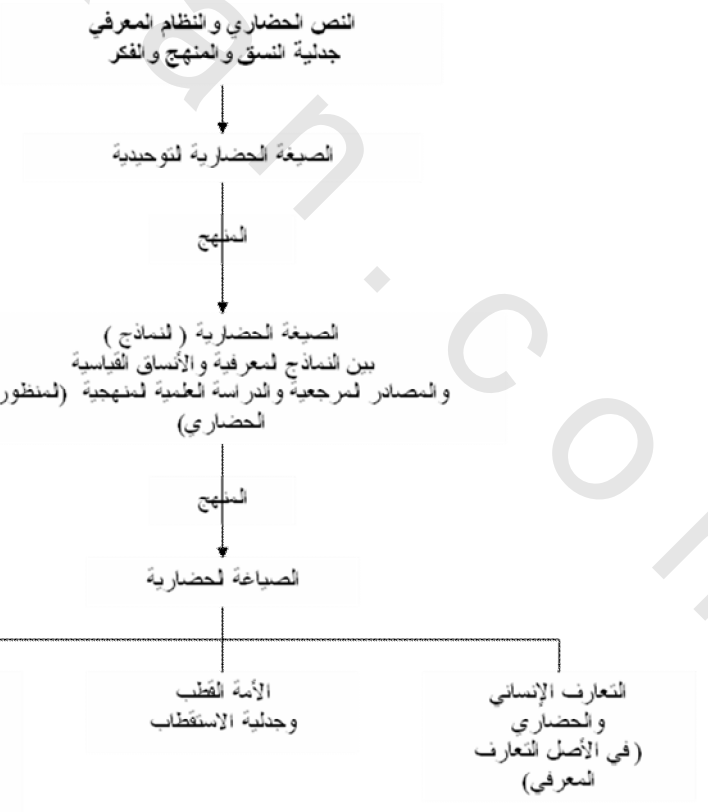

ثم وصلت الصيغة بالصياغة، ومن صبغة وصيغةٍ وصياغة، **أقامت صياغةً حضارية، تلك الصياغة تقوم على أعمدةٍ مهمة؛**

العامود الأول: يتعلق بالتعارف الإنساني والحضاري؛ إذ إن أصل التعارف معرفي. فلقد علمتنا أن أصل التعارف بين الأمم والألسنة والثقافات والألوان وبين المرأة والرجل/ بين الأنثى والذكر في أصله تعارف معرفي.

ثم انتقلت من هذه الصياغة إلى صياغة **"الأمة القطب"** وجدلية الاستقطاب والمفاعل الحضاري.

ثم بعد ذلك انتقلت إلى **عامودٍ ثالث**؛ وهو أن الأمَ ترتبط بالأمة، فكانت دراسات المرأة، وكانت المرأة بالأمة وفي الأمة وللأمة، فالمرأة لا تكون مقطوعة عن مجتمعها.

ومن هنا كانت الواصلة الثالثة التي لا يتأكد فيها معنى لإنتاج النص الحضاري فحسب، وإنما تعليمنا المنهج. فهكذا كانت تعلمنا **المنهج**. وهو منهج **استقته من مشكاة القرآن حينما دعمت في صدر استهلالها لبحثٍ عميق، كتبت عليه بعد أن قرأته "العظمة لله"**، إذ ذكرت قوله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة:48]. واستكملت قائلة **"فالمنهاج هو الطريق الموصّل للغاية ووضوحها وتمامها وكمالها، وويلٌ لكل أمة ليست على هذا"** (*).

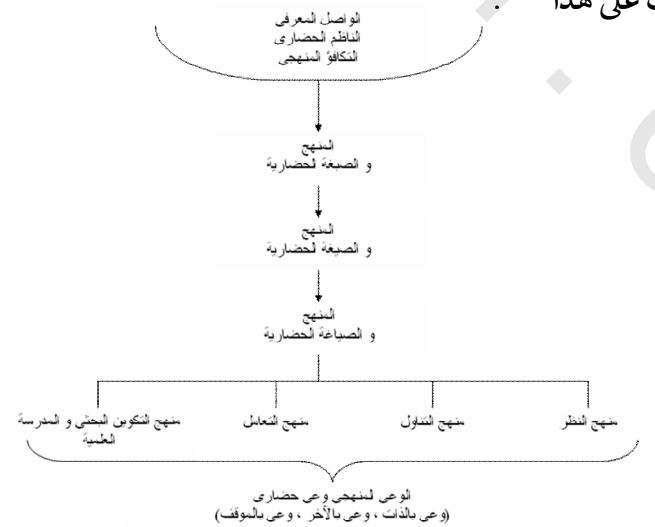

(*) راجع: منى عبد المنعم أبو الفضل، **نحو منهاجية للتعامل مع مصادر التنظير الإسلامي**، القاهرة: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، 1417هـ/ 1996م.

ولكن ما علاقة المنهج بالأمة، وقد تعلمنا أن المنهج إنما يتعلق بأدوات بحثية ومسائل تتعلق بالقياسات والاستبيانات؟

وتتضح الإجابة عند د.منى بالانتقال إلى نبض الأمة وروحها، فتقول:

"ويلٌ لكلِ أمةٍ تضيع منها الشرعة وتضيع منها الغاية وتضل المنهج والطريق، وكذلك الويل كل الويل لأمةٍ انقطع فيها المنهاج عن مورده، فجفت ينابيعه، وأخذت تتسول الدروب وهي تتصنع المورد عند كل باب، وتُردّ في نهاية الأمر عند كل بابٍ تطرقه مدحورة مخذولة".

ما هذه الكلمات التي كأنها تنزيل من التنزيل، إذ تقول أيضًا: "وما كان لخيرِ أمةٍ أُخرجت على أكمل شرعة وأتم منهاج، وقد تخلّت عنهما، أو قل: وقد تاهت عنهما في تشابك ظروف الحياة وتكاتف الحجج وتعاقب ظلمات الخطب، وقد أخذت تبحث عن استعادة العزة، وسعت تلهث وراء أسبابها، ما كان لهذه الأمة إلا أن ينتهي بها المطاف إلى أن تقف ملومةً مذمومة".

"والمنهاج في شرعة العصر هو الأخذ بالأسباب الوضعية المادية التي يتوصل إليها العلم المبنى على الظن والعقل المركب على الهوى من أجل إصلاح الأرض. ومن نافلة القول ألا يُدرَك هذا الإصلاح، وتذهب الأعمال هباءً منثورًا."

"فلا مخرج إلا بالخروج من أسر هذا المنهج وأن يؤسس هذا العلم على العلم الذي علَّمه العليم، فيكون مورد اليقين، وعندما تستقيم المساعي والجهود التي تُبذل لإصلاح ما أفسده الدهر، والدهر منها براء".

"فكأننا إذًا إزاء نسقين ليس من خيارٍ بعدهما: نسقٌ حضاري يقوم على محصّلة العلم الظني والهوى ويتبعه بمناهجه الوضعية ومعطياته، ونسقٌ حضاري مقابل قوام علمه الحق والهدى ويتبعه مناهجه التي تسترشد بمنابع الحق. وهذا هو المنهج".

ومن ثم كان بعد ذلك **تعريفها للمنهاجية** بأنها علم بيان الطريق والوقوف على الخطوات أو الوسائط والوسائل التي يتحقق بها الوصول إلى الغاية على أفضل وأكمل ما تقتضيه الأمور والأحوال.

وهنا أقول لتلامذتي: إن طريق المنهج قد يطول، فإنه ليس بالطريق الناجز، ولكنه

عملٌ متراكم مستقرٌ ومستمر وراسخ تعتريه الكثير من العوارض وتتعدد فيه المنازل، فما بين المنحنيات التي قد تُخرِج السالك عن سبيله وما بين المعارك التي قد ترتفع به لتفسح الآفاق، وتكثر المزالق والمهلكات التي تتعثر بها الخطوات.

وليست **المفاهيم** إلا اللبِنات التي تؤسس منها المنهاجية. وهذا من خلال عمليات الكشف والتفعيل في غير المتاح وقليل التناول، وإن كان ممكنًا ومنطقيًا ومغريًا ومساقًا فيما إذا أعملنا ملكات النظر والتدبر، بحيث لا يبرح أن يكون هذا الكشف والتفعيل في مجال بناء المفاهيم من دواعي الوجوب التي تقع في مقام الفروض.

إذًا هذا هو الأمر الذي يتعلق بهذا المنهج، باعتباره مفهومًا كاملاً شاملاً يربط بين منهج الدراسة ومنهج التأليف ومنهج الكتابة ومنهج الأمة ومنهج النهوض. فالمنهج صبغةٌ حضارية، والمنهج صيغةٌ حضارية، والمنهج صياغةٌ حضارية.

وكنت قد أنشأت ثلاثية اقتطفت بعضها من الحكيم **"البشري"** –أعطاه الله الصحة والعافية– حينما تحدّث عن منهج النظر، وقد تحدثت أنا بالاعتبار العلمي عن منهج التناول الذي يتعلق بالأدوات البحثية، ومنهج التعامل الذي يتعلق بالواقع، ولكنني حين قرأت الورقة التي كتبتها د.منى أبوالفضل كمقدمة لكتاب الدكتور نصر عارف **"في مصادر التراث السياسي الإسلامي"**، وجدت نوعًا رابعًا غفلت عنه. وهذا المقام لا يكون إلا مقام الكبار، ولتتذكروا هذا المنهج المهم وهو **منهج تكوين الباحث رسالة ووظيفة ودورًا**.

وأود هنا فقط ذِكر ما قد بيَّنته بشأن هذه التجربة الشعورية وهو أن الفرصة كانت كبيرة لاستذكار كل ما وقع تحت يدي من أوراق للدكتورة منى أبو الفضل، وكان استذكارًا حسنًا من تلميذٍ لأستاذةٍ عظيمة.

وفي هذا الإطار، فإنها تتحدث عن شروط الباحث وعلاقته بتخصصه، وإضافة ما يمكن تسميته بمنهج تكوين الباحث، فعلى الباحث أن يُقبل على مجال بحثه في كل أمر بعد أن يكون قد تكوَّن في تخصصه على النحو الذي يُخوِّل له التعامل المستقل من المنطلقات وحقل المفاهيم في تخصصه من منطلق المستوعِب لا المستوعَب، والتحرر من سلطان التخصص الحديث، فلا يعني الانغلاق العلمي ولكنه يقتضي توسيع رقعة

التعقل والتدبر في حقل التخصص من خلال تكوينه العلمـي ذاتـه، فتكـون المرجعيـة المهنية في تكوين التخصص وحمله لتقديم المتخصص المتمرس.

وهنا أود فقط أن أقرأ بعض ما قال "**أبو حيان**" في مقابساته، وكأنه يصف أستاذتي، فيقول "**إن الألفاظ وساطة بين الناطق والسامع، فكلما اختلفت مراتبها على عادة أهلها، كان وشيها أروع وأبهى. والمعاني جواهر النفس**".

فمن قال إن أستاذتنا قد مضت من هذه الحضارة وذهبت إلى انجلترا، وقد كـان في عمرها شهور، وهي تكتب هذه الكلمات بهذه اللغة الفائقة الرائقة التي لا يُباريها فيهـا كاتب!!

فكلما ائتلفت حقائقها على شهادة العقل، كانت صورتها أنصع وأبهر، وإذا ما وفَّت البحث حقه، فإن اللفظ يجزل، ويتوسط تارة بحسب ملابسته التي له من نـور الـنفس وأي نورٍ كنورها، وفيض العقل وأي فيضٍ كفيـضها، وكـذلك شـهادة الحـق وبراعـة المنظر.

رحم الله أستاذتي وأسكنها فسيح جنَّاته.

openkan.com